

[تفسير سورة البقرة، الآيتان: 26، 27]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰلْسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود، وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله تعالى :

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات الثلاث [٢٠-١٧] قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هو الآية إلى قوله تعالى : ﴿هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

وقوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي ما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة . روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة» (4) فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستكف من ضرب المثل بها ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ

شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ [الحج: ٧٣] وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: 41] وقال تعالى:

﴿الْمَ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٢﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٤٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: 24-27] وقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ... الآية [النحل: 75]،

ثم قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ... الآية [النحل: 76]، كما قال: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها. روى السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني به المنافقين، ويهدي به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به. ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ يعني المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم، وإيماننا إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد

علموه حقا يقينا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : هم المنافقون.

[تفسير سورة البقرة، الآيتان: ٢٨]

والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة، وتقول العرب: فسقت الرطبة : إذا خرجت من قشرتها . ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن حجرها للفساد. وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحداة والعقرب والفأرة والكلب العقور " .

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد به في الآية الفاسق الكافر، والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧)

وهذه الصفات صفات الكفار المبائنه لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴿

الآيات، إلى أن قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٢٥)

[الرعد: 19-25] والعهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، هو : وصيه الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته ، في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

[المراد بالخسران]

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة. وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرعد: 25] وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به: الكفر، وما نسبته إلى أهل الإسلام، فإنما يعني به: الذنب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي كيف تجدون وجوده أو تعبدون معه غيره ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾

[تفسير سورة البقرة، الآية : ٢٩]

أي وقد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾

[الطور: 35، 36] وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنزِلَ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة، وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾

أمواتا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله تعالى: ﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]

[بداية الخلق]

وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى: قل أنكم لتكفون الذي خلق الأرض في يومين وتعلون له أندادا ذلك رب العلمين ﴿٩﴾ قُلْ أَيَّنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ [فصلت: ٩-١٢]

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله فأما قوله تعالى

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَدَّلَهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعًا لَّكُمْ وَلِيُنَعِّمَ كُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]

[خلقت الأرض قبل السماوات]

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]

﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض". وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في

آيات سورة السجدة الماضية. فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء .

[دحيت الأرض بعد خلق السماوات]

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء). وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا، وقد حررنا ذلك في سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى :

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَيْتَهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ﴿٣٢﴾﴾

ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعا فيها بالقوة إلى الفعل، لما أكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

[الفوائد التربوية]

1- المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزَّ وجلَّ بعقله؛ لقوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ .

2- أن إضلال من ضلَّ راجع إلى وجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

3- في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة: 27]، التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأنَّ ذلك يكون سبباً للفسق .

[الفوائد العلمية واللطائف]

- 1- في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ دلالة على رحمة الله تعالى بعباده حيث يُقرّر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة؛ لتتقرّر تلك المعاني العظيمة في عقولهم .
- 2- أنّ القياس حُجّة؛ لأنّ كلّ مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليلٌ على ثبوت القياس .
- 3- إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: مِنْ رَبِّهِمْ .
- 4- أنّ ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا .
- 5- كثرة الضلال وكثرة المهديين، بالنظر إلى كلّ واحد من القبيلين على حدة، لا بالقياس إلى مُقابلهم؛ فإنّ المهديين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال، كما قال تعالى: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .
- 6- أنّ الموت يُطلق على ما لا رُوح فيه، وإن لم تسبقه حياة .
- 7- أنّ الجنين لو خرج قبل أن تُنفخ فيه الرُّوح، فإنّه لا يثبت له حكم الحيّ؛ ولهذا لا يُعسّل، ولا يُكفن، ولا يُصلّى عليه، ولا يرث، ولا يُورث .
- 8- أنّ الأصل الحلّ في كلّ ما في الأرض من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة، وتمّ تأكيدُ هذا العموم بقوله تعالى: جَمِيعًا
- 9- كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: فسوّاهنّ .
- 10- في قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ إثبات الأفعال لله تعالى، كالاستواء.